قصّة قصيرة

السّفر

عبد الله خليفة(*)

الحي القديم يتفتّح بدروبه الضيِّقة الملتوية، كالأيام والأنام. أحجاره تآكلتْ وتساقطت قشرتها، وتحوَّلت غيرانها ملاجئ للهوام.

بيوت متراكمة فوق بعضها، تتشاجر ضلوعها وأبوابها، قميئة، كالحشائش الفطرية الذابلة، قماماتها حدائق للذباب، ومسامّ دروبها تنزف هياكل وفئراناً وأشباحاً ومجانين وغرباء.

في أيامه، كان هذا الحيّ بهيجاً، صلداً، لا يدخله أغراب، مزدحم بأبنائه الضاحكين، المثرثرين، وفي كل ركن جماعة تلعب الورق، أو تغزل حكايات السفر.

بيوتٌ فارغة ومهدّمة، عشش مليئة بلغات عجيبة، والكل صامت، وغريب ومريب، والبرد يعشعش في الدروب مع الخفافيش، والمقهى القريب مليءٌ بقوالب من الرجال الذائبين، ويتصاعد غناء من البلاستك الّلزج.

خمسة عشر عاماً في السجن، لم تُبقِ شيئاً على حاله. تاهت دروب الحارات من قدميه، وسألته العصافير عن جنسيته. بين الجدران، في برميل الزيت المغلي، كان يحلم بالتوغُّل هنا، بالإصغاء إلى أصوات الأحجار القديمة والمطر، وشرب ماء عيون البنات.

كان حلمه أيضاً أن يطير، كالنوارس، بعيداً بعيداً، يخترق جدران البلدان، ينام في مدريد، ويصيد الطيور في أدغال افريقيا، ويجري وراء الكركدن في أستراليا، يرى الجليد في سيبيريا. . آخ كم حلم بالسفر، بالطيران، بالذوبان في عيون المضيفات، بزبدة البيرة في باريس، بالتماثيل المنحنية حبّاً واحتراماً، بصبايا الشرق الذهبيات الطازجات كالأسماك، بمياه النيل وشقق الدفءِ والصحو إلى الفجر، بتماسيح الكونغو الكسولة، بشقراوات الشمال وبحيْراتهنّ الساخنة.

خمسة عشر عاماً بين الجدران. لو كان جلده من الاسمنت لانفجر! خمسة عشر ألف مليون شجار وغناء نازف للحنجرة وليل صامت طويل تئنّ فيه الوسائد، وبصقات وصفعات من شرطيّ صخري يفخر طوال الليل بغزواته للنساء، واليدان ذابتا من الفؤوس والصخور والقيود والأبواب الحديديّة، وتصير الأحلام مسامير، وتسأل النار: هل من مزيد؟

حَلمَ دائماً أن يأتي إلى هنا، يسير في هذا الزقاق، ويتجه إلى البيت العتيق، يفتح الباب، ويدخل الغرفة المقدّسة. طوبى لقدميْه وهما تطآن تلك البقعة، ويداه تتوجَّهان إلى الجدار، تحطّمان طوبةً وأخرى وتنتزعان حقيبة صغيرة مخبّأة، تكسران القفل وتطلّان في كومة النقود المنتظرة. .

جبل من الأثداء، ومدن الهند الصاخبة، وبارات آسيا الواسعة، ويداك تلمسان غيم الأعالي، ونساء يحترقن حبّاً. . وأنت ترقص في كهوف مضيئة، وتحرق رزنامة الأيام الحجريّة. تشرب وتشرب حتى تصير نهراً للحب قطراتُه دواء للسنين.

خمسة عشر عاماً وهذا الكنز مخبّأ هنا، ينتظر حنانه، وأوراقُه النقدية يئست من البطالة والظلمة. الآن ستتحوَّل إلى غابات من الأطفال، وطيور مهاجرة أبداً.

منذ أن خرج كان الجوع الضاري نزيل جسده. كل أهله ماتوا أو اغتربوا. جاء إلى هنا وسكن غرفة رخيصة شاركته فيها فئران سمينة ومومس عجوز. ثمَّ رأى بيت كنزه؛ إنَّه شامخ بأطلاله.

في السجن كان يسكن معه في فراشه. يسأل القادمين بخبثِ لصّ عريق: «ماذا جرى للحيّ؟ إنني أحبّه. . أريد أن أعرف ماذا حدث لبيوته وطرقه وبشره؟ هل مازال مقهاه موجوداً؟ والسكّة التي بقربه. . ماذا جرى لها؟».

ومرّة أعطاه أحدهم سُمّاً وقال إن الحيّ كله سيهدم، فوصل رأسه

(*) باحثٌ وروائي وقصّاص من البحرين. صدرت له ثلاث مجموعات قصصيّة (هي لحن الشتاء والرمل والياسمين ويوم قائظ) وخمس روايات هي اللآلئ والقُرصان والمدينة والهيرات وأغنية الماء والنار وامرْأة.

إلى السقف، وعاف وجْبَة سمك نادرة، ورأى فينسيا تغرق، وهو في الصحراء الكبرى جذع يابس يؤشّر للنجوم.

تظاهر بالمرض وأُرسل إلى المستشفى وطالع صحيفة وسمع أخباراً وعاد بحلمه سليماً.

سيخرج! حتماً سيخرج، في ذلك اليوم من تلك السنة سيطلع، ويقابل الشمس والشوارع، ويَضع السماء مظلّةً فوق رأسه، ويعطي الدروب البِكْر لقدميه، والصبايا لدفئه، ويجدّف في النيل، ويغرف التربةَ الحمراء في الأوراس، ويصعد إلى الألب بِكُرةٍ من الثياب وقلبٍ من الشباب.

وها هو الآن يقترب من بيت المرأة الشهيّة، حيث كنزه هناك. فور أن خرج تمترس في هذا الزقاق بائعاً مرّة، ومصلّحاً لدرّاجات الصبيان مرّة أخرى. وهكذا صادق ولدها الأكبر. عرف أن أباه مُسافر وأنّ أمّه، مع أخيه الآخر،وحدهما في البيت العتيق. فغازل أمّه وتمنّى لأبيه سفراً جميلاً.

وقد فوجئ بقامة المرأة المديدة، وصدرها الواسع، كمرفأ ذي منارتين عاليتين. فمتى يُلقي بمرساته ويتلو صلواته؟

تودّد إليها كثيراً، وكانت تصدّه، وتتطلّع إلى شكله الهرم، وهيكله العظميّ الطالع توّاً من التشحيم، برثاء واستياء. وما كانت تدري أنّ في هذا الهيكل الشائب كل مولّدات الطاقة القادرة على إرسالها إلى المشتري، بل وأبعد من ذلك، إلى الجنّة.

وحين يضع رأسه على جدار غرفته، متأمّلاً انتفاضة مفاجئة لفأر، أو صناعةَ المومس العجوز لشاياها الأسود الكريه، يصرخ: متى، متى؟ متى يطلع من هذا السجن الدائم، ومن هذا التحديق المستمرّ للجدران فيه؟. كرهت شكله، وعافت طلعته.. وكأنّ كل جلده يصرخ معه، ويقفز إلى الماء، أو إلى جسد طائرة عابرة للحلم.

لكن المرأة الشهيّة طالعته مرّة بود، وقالت «الصَبيّان صارا يحبّانك!» فهتف «ومتى أنت؟» فضحكت وأغلقت الباب.

فكّر مراراً أن يقفز الجدار المرتفع، ويتسلّل كلصّ إلى البيت، يتوجّه إلى الغرفة الأخرى، ويحطّم الطوبتين بضربة واحدة، وينتزع الحقيبة ويلوذ بالفرار.

وعندئذ تنبثق شلّالات افريقيا وقطعانها البكر، ويتألّق وجه صبيّة اسبانيّة في ليل العسل، وتَضجّ بالغناء والورد ساحة في بروكسل. وكأنّ كل البنايات العتيقة، الصلدة، تُطلّ عليه كقرون من النبيذ.

كم استغرق في استكشاف المحيط والطيران إلى القمر؟ ثلاث سنوات.. كان الدم ينفجر فيها من جباه المساجين وينفد السكر والحشيش وتُخنق قطط. وكم ساحَ في البرازيل بلا نقود وهو يقضي عقوبة في زنزانة صغيرة كأنها حقيبة سفر؟

الآن سيتحقّق الحلم.

ها هي المرأة الشهيّة تدعوه للدخول في الليل البهيم. تضاريسها ناعمة وهو سلحفاة فوق كثبان رمليّة. جسد من الغيم ورغوة البيرة ولهب الشمس. قطارات تمضي ولا تأتي. غابات تمطر وتحترق. أم تحضنه وتناغيه وتنزع كل أبر الأيام. كلمات رقيقة وزجاجة دافئة وقصيدة. حمّام ساخن في جزيرة الجبال والثلوج.

يصيح الديك ويخرج ناسياً الكنز حتى الليلة التالية. يرى نفسه عالقاً في أضراس الحيّ وأسياخ الحلم وهو دجاجة في شوّاية تدور طوال اليوم. يصرخ: سأكسر الجدار وأنتزع الحقيبة ولن أفكّر بالمرأة والأولاد والحليب والحفاظات، وسأندلع في السماء صاروخاً موجّهاً إلى الينابيع السعيدة!

وتدعوه المرأة الشهيّة، ويدهش لهذا التجدّد في النار، وتحوّل الكثبان إلى رمّان، وهو يسبح في مياه رقراقة تشتعل حيناً وتتجمّد في أحيان، ويرى البراري والجبال والتماثيل، والكركدن يتقافز في فضاء من القمح المشتعل.

إنه الآن زوج، والمرأة الشهيّة ثمرته، وفي كلّ صرخة على المشترين يرى قطاراً يقتحم نفقاً، وبالوناً يرحل فارغاً، وليس في اليد نقود، وكل فلس ينتزعه الأولادُ والخبز وأكياس القمامة.

يأتي متأخّراً فلا يبحث عن الجدار والحقيبة الصغيرة المختفية، وفي بعض الليالي ينهض مذعوراً، وكأنّ شبحاً صديقاً يناديه. وذات يوم بحث في كل مكان عن قطعته الصلدة المفرّغة فما وعت الجدران نداءاته، ولا استجاب الحجر لأمنياته.

وهو قريب من نبعه الليليّ المتدفّق حرارةً معدنية، رأى صورة الزوج السابق، ملقاةً على البساط، قربه. ولأول مرّة يرى شكله واضحاً. إنه يبتسم وكأنه يهمّ بامتطاء فرسه.

صعد ذلك السؤال الغريب المفاجئ النائم تحت قمامة أيامه، كيف لم يسألها أبداً عن ذلك الأب الغائب المسافر الذي لا يرجع؟

ضمّته إليها وقالت «لا أعرف ماذا حدث له؟ ذات يوم رأيته يعثر على شيء في الجدار المتساقط. صَمَتَ يوماً كاملاً. ثمّ زعم أنه سوف يسافر لزيارة قريب له. بعد أن أغلق الباب وراءه لم أره بعد ذلك أبداً. سمعت مراراً عنه. قيل إنه مرّة في الشرق، ومرّة في الغرب. لا أدري ماذا جرى له. لماذا تسأل؟».